محمد عبد الواحد

رائحة الخوخ

قصص

منتصف أغسطس ١٩٩٨



رائحة الخوخ

قصص

محمد عبد الواحد

إبداعات

رئيس التحرير
فؤاد قنديل

مدير التحرير
سمير ندا

سكرتير التحرير
رضا العربى

المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

رائحة الخوخ - قصص
الطبعة الأولى - منتصف أغسطس 1998

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إبداعات (نصف شهرية) - 67

البيضة

سأحكى لكم.. دقيقة واحدة.. سأحكم إغلاق الباب حتى لا تفاجئنا ماما فتقرأ ما أكتب وتعرف بالأمر كله...

الثلاثاء قبل الماضى خلع بابا حزام بنطاله، وانهال به على ظهرى؛ لأن دوائر حمراء كانت تضىء حول درجات الحساب والعلوم واللغة الإنجليزية..

أول أمس توسلت إلى مدرس الجغرافيا أن يضربنى كيفما شاء.. على ظهر اليد حتى.. فقط لا يشدنى إلى المدير الذى سيرسل بدوره يطلب بابا.. حاولت ألا أشد ثانية.. لكنه فاجأنى بشدى.. لم أثبت حذائى فى الأرض هذه المرة.. وذهبت معه..

بالأمس بدأ بابا انفراده بى بأننى الآن أصبحت فى الصف الأول الإعدادى.. وبأنه سيحادثنى رجلا لرجل.. وأنه على أن أفسر له سر ما يجرى.. بعد ساعة من محاولاته صفعنى ونهض.. فى الصالة سمعته يسب ماما والخلفة..

ماما هى السبب.. يومها قالت لجارتنا الأرملة طنط فايزة

إنها لا تأمن تركى وحدى فى البيت.. وأنها لن تتأخر فى السوق لأكثر من ساعة.. بعد أن أغلقت طنط فايزة الباب لاطفتنى كثيرا.. قبلتنى فى فمى فجأة.. اشتعل وجهى فضحكتْ.. أسرت إلى بأن لديها فى الثلاجة جيلى فراولة رائع.. تباطأت فى التهام الجيلى.. فى التليفزيون كانت صورة دجاجة تجرى وأخرى قابعة تبيض.. ابتسمت وهى تسألنى - هل تعرف كيف تبيض الدجاجة؟.

ابتسمت فى خجل وأنا أترك الملعقة الصغيرة ترن فى كأس الجيلى الفارغ..

ضحكت - لا تعرف؟.. أم أنك مكسوف؟.. لا.. الرجال لا تنكسف.

محتداً قلت - أنا لست مكسوفاً.

ضحكت بتحد وقالت - إذن.. اخلع بنطالك أمامى.

ارتعشت أنفى.. التهبت أذناى.. أنا لا أترك لماما حتى أن تحممنى..

بادرتنى طنط وقالت - أنا لست رجلاً ومع ذلك لا أنكسف .. أنظر...

قبل أن أضع كأس الجيلى الفارغ على المنضدة الصغيرة كانت طنط فايزة تقف عارية تماما .. كتمت صرخة.. ارتعدت.. ما رأيته فوق ما تحتمله عيناى.. فكرت أن أجرى لأفتح باب الشقة.. اقتربت منى.. لم تكن هى طنط فايزة التى أعرفها.. اقتربت.. قلبى سينفجر... إذا اقتربت خطوة أخرى سأقفز من الشرفة.. اقتربت.. تسمرت.. ثبتت عينيها فى عينى وهى تفك لى أزرار البنطلون.. ألقت به بعيدا.. سيضربنى بابا.. سيضربنى.. شدتنى من المقعد.. رمت بى على السرير.. ارتمت فوقى.. صرخت.. أمسكت بذراعى.. لم أستطع الإفلات بجسدى المشتعل من تحت ثقل جسدها الذى بدأ فى الضغط بقوة.. اختنقت.. طفرت عيناى بدموع حارقة.. أحكمت تطويقى تماما.. غبت فى شبه إغماءة..

بعد أن أخذتنى ماما دخلت مسرعاً إلى غرفتى.. حينما سمعت صوت بابا أخفيت وجهى بالغطاء و تناومت.. كنت أشعر بأن كل من سيرانى سيعرف...

فى الليلة التالية.. رأيت طنط فايزة فى نومى وقد انتفخت بطنها.. كان لها جناحان.. ومنقار أحمر ضخم.. أخبرتنى بأنها

ستبيض لى ابناً صغيرا..

أنتم كبار.. ولكم أولاد.. وتعرفون.. هل يمكن أن يحدث هذا فعلا؟!.. يكون لى ولد صغير؟!.. أو بنت تحبو ناحيتى حين ترانى؟!.

فكرت ذات فسحة أن أنادى عادل الذى كان فى الحوش يركل مع آخرين لب حبة دوم.. لكننى تراجعت خشية أن يشعر بأنى كبرت عنه فجأة.. وأن يقاطعنى إلى الأبد...

ماذا ستفعل ماما؟.. بالتأكيد ستضربنى وتضرب طنط فايزة.. لكن.. هل سأبكى؟.. أم أدافع عن نفسى وعن طنط؟...

فى الغد سأقبل من صلاح السيجارة التى رفضتها كثيراً..

هل سأنتقل إلى شقتها؟.. وتضربنى هى بدلاً من ماما إذا ما تركت مذاكرتى لأشاهد «توم وچيرى».. أم أنه على من الآن أن أترك المدرسة بالفعل.. وأن أبحث عن عمل كى أعطى الولد مصروفه مثلما يعطينى بابا؟.. سيذبحنى بابا.. نـ.. نعم.. سيذبحنى بسكين المطبخ.. وسيرد اسمه وصورتى فى صفحة الحوادث.. أو.. قد يعاملنى كأب مثله ويلاعبنى الطاولة مثلما يلاعب الآباء الآخرين..

وإذا انتقلت إلى شقتها؟.. هل ستنام معى كل ليلة فى غرفة خاصة بنا مثلما لبابا وماما؟.. وأن تسألنى قبل خروجى إلى المدرسة عن أنواع الطعام التى أرغبها اليوم...

سيجعلون لى فى الفصل دكة خاصة بى.. وسيبحلقون فى طوال الحصص.. وسيخجل المدرس من ضربى خاصة إذا كان لم ينجب بعد..

عرفوا بحمل زوجة خالى فى شهرها الرابع.. شهر تبقى.. وسيعرف الجميع عن طنط فايزة.. لكن عشرون يوماً تبقت على الامتحانات.. ماذا أفعل؟.. آه.. يا ربى.. سأصلى كثيراً.. وأذاكر كثيراً.. فقط.. لتمت طنط فايزة قبل مضى هذا الشهر.. أو.. ليمت بابا وماما والمدرسون.. أو لأمت أنا.. هه؟.. هناك من يطرق الباب.. هل عرفوا شيئاً؟.. الطرق يشتد.. الشهر لم يمر بعد.. سأتوقف الآن عن الكتابة.. لن أفتح.. سأتناوم.. الطرق يشتد أكثر.. أكثر.. صوت طنط فايزة فى الخارج وصوت بابا ينادى فى وعيد..

الرياض

١٦ /٧/ ١٩٩٥

رائحة الخوخ

- ورم.

قالها وهو يطفىء شاشة «المونيتور» على صورة معدتى...

وقفت.. دسست بعض قميصى فى البنطلون.. لم أهتم ببقيته المدلاة.. ازدردت ريقى.. بصعوبة بالغة سألت - خبيث؟.

جلس إلى مكتبه.. أرخى ذراعى النظارة وهو يضعها على زجاج المكتب.. ثبت عينيه ناحيتى صامتاً.. روح ثلجية مفاجئة مسحت على عظامى.. ارتعدت.. ظلمة مثقبة ببقع رمادية بدأت فى ابتلاع أركان العيادة.. قبل أن يغيب الدكتور تماماً عن عينى هززت رأسى بقوة.. عادت صورته والمكتب.. كان متشاغلا بدفتر الروشتات.. يقلب صفحاته الفارغة.. عند آخر صفحة قال - المشكلة أنه بدأ فى الانتشار.

اجتاحتنى رغبة مفاجئة أن أهرش جسدى كله حتى يدمى.. أغمضت عينى.. ملأت مقبرة العائلة رأسى.. تضخمت.. تضخمت تماماً.. الأرض حولها طينية موحلة.. كلب أسود

يتوقف عن تجَواله ليلاً ويرفع يسراه.. تشرب الأرض الموحلة بوله.. تبتل عظامى.. صوت أقدام على الأرض فوقى رائحة غادية.. عادل وسميرة يبكيان عدن رأس المقبرة.. أمهم فى فستان أسود ضيق واقفة فى البعيد..

فجأة تلقى بالفستان الأسود وتتمدد عارية تحت زوج آخر كثيف شعر الصدر.. معافى كالبغل.. ومعطر الخوخ الذى تفضله دائماً يتنفس بعمق فى فضاء حجرة النوم الجديدة..

بصوت مشروخ همست - والحل؟

مط الدكتور شفتيه.. هز رأسه يميناً ويساراً، وهو يضغط بقوة زر جرس بجانبه.. زعق الممرض خارج الباب ينادى اسماً جديداً.

المنصورة

١٧/١٢/١٩٩٦م

بروتين

لم ينتبه إلى كوب الشاى الذى ماتت منذ دقائق على سطحه خيوط الدخان.. استمر فى ورقة واحدة يسجل موجزاً لنتائج تجربته موضوع البحث المقدم لنيل الماجستير..

«لأن المطلوب إيضاحه هو أثر اختفاء البروتين على سلوك الكائن الحى، فقد قدمت لفأرين أبيضين كميات مشبعة من الطعام خالية تماما من أى بروتين.. تابعتهما فكان:-

اليوم الأول..

الفأران الأبيضان يأكلان فى نهم.. فجوع الثلاثة أيام الماضية لم يترك لهما الفرصة لرفض أى نوع من الطعام.

اليوم الثانى..

الفأران الأبيضان مازالا يأكلان فى نهم. تسافدا بحدة خمس مرات.

(ليلتها أشعلنى بريق عينيها.. توهجت نارى باحمرار شفتيها ووجنتيها.. خلعت طرحتها.. أعطتنى ظهرها وابتسمت.. كانت

أناملى ترتعش وأنا أهبط بسوستة الفستان الأبيض)..

اليوم الخامس..

انخفضت شهيتهما للطعام بشكل ملحوظ.. بدأ كلاهما فى حك جلده خلف الأذن وقريباً من أعلى البطن بالأطراف الأمامية وكأن جيوشاً من النمل تأكلهما.. تسافدا مرة واحدة لم تكتمل.

(سألتنى لماذا؟.. اعتذرت بأنه الإجهاد.. قبل أن أغيب فى النوم أحصيت فى رأسى ما تبقى فى جيب بنطالى لطعام الغد.. منتصف الشهر).

اليوم الثامن..

تضاعفت الخطوط الدموية الناتجة عن حركات الحك والخمش بالأضافر.. فبدون البروتين لا تتكون الخلايا الجديدة فى نفس الوقت الذى تتآكل فيها الخلايا الموجودة.. أعتقد أنهما يشعران بعذاب شديد لذلك.

(قالت إنها لم تعد تطيق.. وإنها لم تجد فى السنوات الأربع التى درستها فى كلية التجارة قانوناً واحداً يستطيع تحقيق الموازنة بين إمكانياتى واحتياجاتنا).

اليوم التاسع..

لاحظت احمراراً في قرنية العين.. تساقط كميات كبيرة من الشعر.. ارتخاء الأذنين.. تشققات أخدودية قاسية على طول الجسم.. عزوف شبه تام عن الطعام.

اليوم العاشر..

. أصبحت حركاتهما بطيئة للغاية.. غير متزنة.. كلاهما يزوم في ألم وهو يدور حول نفسه كأنه يبحث عن شيء ما ثم يسقط ثم ينهض ثانية يدور حول نفسه.

(قال الطبيب « فقر دم.. لابد من تغذيتها جيداً وإلا ستعاودها الدوخة وستسقط إلى الأرض ثانية).

اليوم الحادي عشر..

في الصباح.. الذكر لا يستجيب لحركات الأنثى..

في المساء.. كل منهما في الجانب البعيد من القفص يتلوى وهو يضرب وجهه بأظافره من شدة الألم..

(عندما أغلقت على نفسها باب الحجرة وأخذت تبكي لم أجد في حلقي ريقاً ولا كلمة.. لابد من قرار.. أسندت ذراعي على حافة المقعد.. أخذت جبهتي تحت أظافر أصابعي الأربعة أفكر).

اليوم الثانى عشر..

ازدادت فجأة حركات الأنثى إغراء.. بعد ساعات اقترب الذكر.. انقضت عليه تعضه.. هرب بعيداً وهو يصرخ.. اكتشفتُ أن كليهما داخل القفص هو المصدر الوحيد للبروتين.

اليوم الثالث عشر..

مات الفأران.. وعلى كل من الجثتين آثار أظافر وأنياب الآخر.

انتهت التجربة.

المنصورة

١٧/١٢/١٩٩٦م

حافة الرصيف

صفر قطار غير الذى ينتظره.. بعينيه التقط الساعة فى ضجر.. دفع أصابعه فى جيبه العلوى يتحسس تصريح الأجازة والكارنيه.. فالأفارول الزيتى لا يشفع عند الكمسارى.. ودونهما يصر على تذكره كاملة...

تابع نملة تزحف على الأريكة الأسمنتية التى يجلس عليها.. أدار قرص المذياع الذى أخرجه من جيب حقيبته.. ترك لفيروز الفرصة كى تنادى شادى..

– إسرائيل لازم تضرب هنا.

التفت إلى الصوت الجهورى.. المبحوح.. الغاضب.. لحية أطفأ شيبها التراب.. شعر متنافر.. نصف جلباب تمزق تماماً عند العورة – ولازم تضرب المحطة دى.

عصا خشبية يطرد بها فى قلق الأشباح من أمامه.. عينان مضروبتان دماً.. جفنان تشحنهما الشمس جنونا..

صفر قطار سريع لم يتوقف فى المحطة..

– ولازم تضرب القطر ده.

ضرب بالعصا عموداً أسمنتياً قابله.. هممم.. انحرف يساراً.. عند حافة الرصيف سقطت منه العصا بين القضبان.. تأرجح وراءها فى الهواء.. التقطه أحد المارة على الرصيف.. ناوله آخر العصا.. شدد قبضته عليها وأطاح بها فى وجهيهما - ولازم تضربكوا إنتم كمان.

لعناه.. طاردهما بصياحه...

شادية تصر على أن بلادها أحلى البلاد.. وأنها فداؤها والولاد..

ثبت العصا بين يديه.. ارتكز بظهره على أحد الأعمدة.. وهو يجلس تدلت عورته تماماً.. عيناه المضروبتان دماً تتحركان بلا اتجاه - اشمعنى إحنا؟.. لازم تضربكم إنتم كمان.

من جيب جلبابه أخرج كسرة خبز وقرص طعمية.. وضعهما إلى الأرض جواره.. لم يأكل...

«هذا وقد أكد سيادته عقب زيارة المسئول الإسرائيلى بأن خطوطاً للغاز والكهرباء ستمد إلى إسرائيل.. وأن المستقبل يشترط...»..

كان قطاره يصفر على الرصيف.. الزحام يسد النوافذ والأبواب.. نهض.. تحرك فى بطء شديد.

المنصورة

١٦/٥/١٩٩٥م

ظلمة

أخذ الدكتور المحاضر باب المدرج خلفه.. دون أن يلقى بتحية الصباح على المائة والعشرين طالباً، ارتدى نظارته الدوامية العوينات.. رتب بعرض السبورة.. من يسارها إلى اليمين ثلاثة أسماء لأنزيمات.. بعد نصف المحاضرة تكلم عن الثالث.. صنفه بأنه إنزيم نهارى..

انتبه.. تابع الدكتور...

وأنه فى الظلام لا تستطيع غدته أن تطلقه خارجها..

قال فى نفسه «لا تستطيع»..

وأنه يظل حبيس مكانه طالما لا يوجد ضوء..

فى الورقة أمامه كتب «لا يوجد»..

وأن سكان البلاد التى لا تضيئها الشمس إلا لساعات كل عام يكونون عصبيو المزاج.. يتعاملون بالسباب.. والرصاص.. فالإنزيم لا يجد الفرصة للهروب من غدته..

فكر «الفرصة»...

ويبقى بداخلها حبيساً..

«حبيساً..

يدور فى ظلامها.. يتحسس الغشاء باحثاً عن مخرج..

تحسس رقبته.. تسلل من مكانه..

عن ثقب من ضوء..

التفت إلى النافذة..

يدور.. ويدور.. ويدو......

فجأ.. التفت الطلاب إلى باب المدرج الخلفى.. كان واقفاً عنده يرتعش.. زميلهم الطويلة ذقنه أبداً.. الذى لا يغير قميصه.. ولا يذهب معهم إلى الكافيتريا. ولا يحادث الزميلات.. يضرب بقبضتيه الباب المغلق وصوته يرتعش بالبكاء - افتحوا لى.. عايز أخرج.. الحتة ضلمة.. الحتة ضلمة.

شنجبي

قبل أن أتثاءب كان فؤاد قد ألقى بالسلاح بين ذراعي وتدثر بالبطاطين الثلاث وهو يرتعد «اسـ.. استلم خدمة البرج.. الليلة ثـ.. ثلج».. قالها وهو يدفعني وأسنانه تصطك...

أحكمت غطاء الزنط على رأسي الذى امتلأ بوجه الشاويش حامد عبد الجواد.. وبشاربه الكث.. نفضت بنطالي من الرمال.. تحسست الدرجات الخشبية وأنا أصعد سلم البرج.. الوغد.. منذ أول يوم تم فيه ترحيلي إلى هذه الوحدة ونحن نتبادل الكره الحارق.. دخلت صندوق البرج الخشبي.. كنا ندك الأرض بكعوبنا في عنف كي ننهي طابور الهتاف وننتهي من تحذيراته بأنه يريد خدمة من حديد.. وبأن الراديو ممنوع.. الأكل ممنوع.. السجائر.. الجلوس.. التدثر بغطاء.. وعندما تلبث بعينيه على عيني قال - تعرفون أن نبطشيتي لا تمر زبداً دون ضحية.

في البرج تعثرت بصندوق فارغ.. أوقفته وجلست.. أخذت السلاح على فخذي.. الصحراء بعد الأسوار خلفي ترتمي في

الأفـرول.. ومـثلهم بـالأقل حـتى أسـتقـر فى عـمل.. «ياحـبـيـبى بحبك».. وماذا فى يدى.. هاهى الساعات الأولى.. الباردة.. من صباح الخـمـيس المشـئوم.. بعد سـاعـات سـيناديك أبوك كى تصافحين الضيوف.. بأى فستان ستدخلين؟.. بأى ابتسامة؟.. لمن ستكون الزغرودة الأولى؟.. أمك؟.. أم أم الـ..؟ فجأة.. توقف دمى.. كان شبحه واقفاً عند باب البرج.. سلاحى فى يده.. وعلى وجهه ابتسامة رهيبة.

المنصورة.

١٥/ ٧/ ١٩٩٣م

الظلام.. على وجهها تآليل حجرية كأنها شواهد قبور.. وبفمها تصفر رياحاً شتوية.. أخرجت وجهى من برواز البرج أراقب.. من جيبى سحبت الترانز يستور فى حذر أدرته.... سأكتفى بهسيسه خير من خرس ساعات الليل الأربع الأخيرة.. أعرف السيجارة التى منحها للقائم على جدول الخدمات وهو يوصيه بأن يبدلنى إلى شنجى.. كى يأكلنى برد الفجر.. ويسهل اصطيادى نائماً.. فيسحب السلاح.. بعدها يكيلنى فى السجن بحذائه ركلاً.. وبالقايش يجلدنى.. مسح الهسيس أذنى باسم فيروز.. رائعة هى الليلة.. «من ملابسكم سأخرج لكم».. أيها الوغد.. سأفرش لك أذنى على أرض الوحدة لتفضح خطواتك الأولى فى الظلام.. سأجعل من إنسان عينى مارداً يصطادك وأنت تتوارى خلف الأسوار.. «شايف السما شو بعيده...» كان وجهها ممزقاً.. أخذت ريقها مرتين «لا فائدة من الرفض.. هذه المرة جارنا.. مهندس وثرى.. أصر على أخذ ماما إلى السوق بسيارته المرسيدس.. فاتحها بأنه يريد زيارتنا الخميس القادم»...

«كبر البحر وبعد السما» ثمانية أشهر قبل أن أخلع هذا

تاشيرة

دفعت الهواء من صدرى وقلت «أخيراً»...

دسست جواز السفر فى الجيب الخلفى لبنطالى.. أعطيت ظهرى للطابور المتدافع وخرجت.. التفت إلى الباب الزجاجى الداكن.. انغلق أتوماتيكيا.. تأملت اللوحة العبرية الضخمة التى تعتليه وقد ذيلت بترجمة عربية «السفارة الإسرائيلية».. أخرجت جواز السفر ثانية.. عندما مددت للموظف الأشقر أوراقى بابتسامة مثل الآخرين تفترش كل حروف كلمة «شالوم».. التقت عيناه بعينى.. اجتاحنا شعور غامض.. شعور دفعه لأن ينهمك فى ملأ البيانات، ودفعنى لأن أعبث بياقة قميصى وأنا أبحث فى الصالة خلفى عن لاشىء.. التفت إليه ثانية.. عندما حاول الفرار من الخندق التهمت بالرشاش ساقيه.. انكفأ بوجهه فى الرمال.. مد يده مرتعشة ليكتم الدم بادئاً فى البكاء.. نهض بالأوراق فجأة لختمها من أشقر آخر.. لم ألاحظ فى سيره عرجا..

الوجوه فى الشارع تختلط.. تمتزج.. وجه ضبابى يتضخم.. يترصدنى.. يستعد للبصق.. شددت «الريبان» من جيب قميصى.. ثبتها على عينى.. زعق موتوسيكل يجر صندوقاً أحمر يحمل هرماً من أسطوانات الغاز.. على أحد جانبيه بخط عريض ولهجة جادة «مشروع شباب خريجى الجامعات».. أكد فتحى فى رسالته الأخيرة أن ساعة العمل هناك بعشرة دولارات.. وأن أجره وحريته لا يهددهما كفيل تحت غطرة وعقال..

سترفض عمتى وداعى.. مفاجأة سفرى ستجعلها تكف للأبد عن البكاء على محمود.. ذبحه رائد إسرائيلى وهم يسحبون طابور الأسرى تحت شمس يونيو لأنه طلب مكرراً جرعة ماء...

عندما قفزت إلى ظهر الدبابة دفعت قاذفة اللهب فى فوهة البرج.. توقفت الدبابة عاقدة سحابة من الرمال.. وثب أحدهم وهو يضرب بكلتا يديه النار العالقة بسترته.. أشرت إليه بكفى المفرود فنزل على ركبتيه.. توسل والدخان يتصاعد منه.. فتحت الرشاش عن آخره لتتناثر شظايا رأسه..

فى الصفحة المخصصة تأكدت من وضوح تأشيرة الدخول فوق غرض العمل.. عشرة دولارات فى الساعة.. ستون دولاراً

فى ستة ساعـ.. صرخت فجأة فرامل سيارة.. قفزت عابراً إلى الرصـيف الآخـر.. لم أتوقف.. ولم أجـد بداخلى أدنى رغـبـة للالتفات والرد على سباب السائق لكل العائلة،.

المنصورة.

١٩٩٧/٩/١٥م

انسحاب للأمام

تحت عجلات الأتوبيس مر مطب كبير.. استيقظ.. المقاعد غارقة في الظلام.. على المساند رؤوس نائمة تهتز.. جفف لزوجة العرق عن عنقه.. شبح راكب واحد يتحرك فى مقعدة، يأكل فى صمت.. السائق ينزل عن فمه زجاجة مياه معدنية.. يقود فى يقظة اعتياده الخطوط الدولية.. أزاح الستارة عن النافذة.. صحراء سيناء تنسحب بسرعة إلى الخلف.. بالتأكيد أن خطيبته لم تنم إلى اللحظة بعد وداع بكت فيه كطفلة.. وأن أمه أيضاً قد رفضت تناول العشاء.. حينما انهار باكياً فى صدر أبيه شدد عليه ذراعيه وقال مختنقاً ـ كن رجلاً.

كل ليلة يخرج من كل مدينة أتوبيس ممتلىء.. كل ليلة يرمى بهم الأتوبيس عند البحر الأحمر لتشحنهم عبارة ضخمة إلى الشاطىء الآخر.. يوم أن عاد من منطقة التجنيد بتصريح السفر كان إلى جواره فى القطار رجل يمسك بجريدة معارضة يخط فى عصبية بسهم أحمر على عنوان عريض «١٤٪ من سكان

البلد يملكون ٨٠٪ من دخلها القومى»...

خدش الفجر ليل الصحراء..

فوق الرمال المتثائبة الممتدة إلى الأفق لمح عقرباً ضخماً يجرى..

استراحت رأسه على زجاج النافذة تهتز لخشونة الأسفلت..

فجأة..

ارتد برأسه عن النافذة.. فكر بأن نظره يخادعه.. أو أن عدم النوم منذ أول الأمس هو السبب.. تأكد أنه لا يهذى حينما أخرج زجاجة المياه من تحت مقعده وشرب.. الرمال فى البعيد تتفجر عن أعداد هائلة من العظام تتناثر فى الفضاء.. تتساقط.. تتراص فوق بعضها.. عظام القدمين.. فالساقين.. فالحوض.. فالقفص الصدرى.. تقفز جمجمة.. تدور على فقرات العنق.. ينحنى الهيكل الكامل ليلتقط من الرمل خوذة صدئة.. يثبتها فى غير حماس فوق الجمجمة.. آخر يعلق على عظام الكتف زمزمية ماء صغيرة.. فارغة.. يابسة حتى التشقق.. بعضهم كان يلتقط أحزمة ذخيرة مفككة يحاولون تثبيتها حول عظام الحوض.. سمع فجأة أزيز حوامتين.. اقتربتا تصفعان فجر الفضاء بالمراوح العلوية الضخمة.. فزعت الهياكل.. بدأت فى الجرى بعكس اتجاه الأتوبيس.. كشفت المصابيح الأمامية لإحداهما

على جانب الأخرى نجمة داود ضخمة.. ارتمت بسرعة بعض الهياكل على الرمال فتفككت ثانية.. استمرت بقية الهياكل فى العدو شتاتاً.. استدارت الحوامتان.. بدأتا فى ملاحقتهم وهما تمطران الرصاص المشتعل وقد انخفضتا قرب مستوى جماجمهم.. تشق الصحراء صرخة واحدة رهيبة قبل كل هيكل يتبعثر ثانية.. خفض رأسه عن زجاج النافذة.. قلبه يدق فى عنف.. تخيل للحظة أن عقد العمل سيخرج من جيبه حوامة تمطره هو الآخر رصاصاً.. ابتعد صوت الحوامتين.. ابتلع الأفق تصفيقهما فجأة.. رفع رأسه إلى النافذة.. الدخان ينبعث من العظام المتناثرة فوق الرمال.. بدأت الرياح وكأنها اعتادت العمل - فى دفنها من جديد...

فجأة..

خرج هيكل كان مختبئاً خلف صخرة ضخمة.. ألقى بخوذته المتآكلة إلى الأرض فى يأس.. وبخطى متثاقلة تابع انسحابه بعكس اتجاه الأتوبيس.

المنصورة

٣/٤/١٩٩٦

تعديل في سِفْر الخروج

- ١ -

«وقال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى، وكل بكر بهيمة.: ويكون صراخ عظيم فى كل مصر لم يكن مثله ولا يكون»

«وقال موسى للشعب أذكروا هذا اليوم الذى فيه خرجتم من مصر من بيت العبودية فإنه بيد قوية أخرجكم الرب من هنا».

- ٢ -

قال لنا المدرس: إن اليهود هربوا فى الليل.. وإنهم فى خروجهم اتجهوا ناحية البحر الأحمر.. مثقلى الأكتاف بمتاع وزاد.. رغم ذلك كانوا فرحين للغاية.. لأنهم بعد ما لاقوة من ضنك وسخرة.. سيأكلون جيداً.. ويقطنون بيوتا غير التى هم فيها خدم.. قام أحدنا يسأل - هل كان معهم جوازات سفر؟.

- ٣ -

كل ليلة – وعند المحطة القريبة من البيت – أرى زحامهم.. فى انتظار قيام أتوبيس نويبع.. حقائب ضخمة ملطخة وجوهها بأسماء أشخاص ومدن.. جوازات السفر الخضراء مطوية على تذاكر طويلة.. يتعانقون.. يصعدون درجات الأتوبيس.. يطلون من النوافذ.. على وجوههم سعادة لا تناسب التجهم الحار للواقفين.. بعدما تكف الأيدى عن التلويح لمؤخرة الأتوبيس الذى تحرك، يتبادل الجميع أن ابن العم أيضا سافر بالباخرة.. والصديق بالطائرة.. وزوج الأخت سيخرج الغد.. وأن البقية سبقوا إلى هناك.. ويتهامسون بأنهم على استعداد مقابل تأشيرة يخرجون بها لدفع أى مبلغ.. أى مبلغ.

المنصورة

٤/ ٢/ ١٩٩٤

محاولة

أخذ جواز سفره من الضابط... قبل أن يعبر الحواجز الحديدية فى صالة المطار ، استدار لهم.. صافحهم.. حينما جاء دور أبيه الحزين شده إلى صدره.. شدد كلاهما ذراعيه حول الآخر... إرادة خفية متبادلة... أن يذوب كلاهما فى الآخر تماما..

- عامين سأغيب هذه المرة

لمح فى العينين الذابلتين بللاً.. رفع الأب منديله القماش القديم بيد مرتعشة مكتظة بالعروق المتعبة... للمرة الأولى بعد عطلته القصيرة لاحظ أن المرض قد أكل تماما نصف أبيه.. شده ثانية إلى صدره.. أجهش بالبكاء

- عدنى يا أبى أنك حين عودتى ستكون موجوداً، ربت على ظهره... بصوت مختنق تمتم

- سأحاول... سأحاول

المنصورة

٦/ ١٠/ ١٩٩٦م

نخلة عالية

•

تحت عمود النور خطفت عينه الساعة.. هرول.. لابد أنهم الآن يلعنونه بالوغد.. سيرد عليهم بأن الوغد هو صاحب نادى الفيديو الذى كرر «دقيقة واحدة». فوق الساعة والنصف حتى أعاد أحد الزبائن نسخته.. بالأمس قال حسين إنه شاهده عند ثلاثة من أصدقائه.. وأنه لا مانع من مشاركتهم الليلة بعد انصراف طلبة الدرس.. بعينه اليسرى غمز أنه فعلا جديد ويستحق...

كما توقع كانوا عند باب البيت يمسحون بعيونهم الشارع.. دون أن يلعنوه تخاطفوا الشريط.. تسابق ثلاثتهم على السلم.. عندما لحق بهم ودخل من باب الشقة الذى خلفوه مفتوحاً كانوا قد التفوا حول الفيديو.. أخذ كل منهم وضعاً مريحاً على قطع الأثاث المتناثرة فى الصالة.. المدافع الضخمة تهدر على قمم الجبال التى تبتلع المدينة الصغيرة.. الفوهات تصب الجحيم.. ألسنة اللهب تصطاد بلح نخلة عالية.. على أحد الأزرار التى فى

يده ضغط حسين.. أسرع الشريط فاختلطت الصور والألوان...
رفع أصبعه.. ساق مثبت بها حذاء بنى تطير ناحية نافذة
فتهشمها وثلاثة أرباع رجل يسقط ذاهلا.. يبكى.. يمد يده
المفرودة.. المرتعشة ناحية الكاميرا وقد استطال وجهه تماماً..
انفجر طفل كان يبكى من شىء ما فالتصقت أحشائه بالشاشة
تاركة خلف نزولها خيطاً بين لزوجة الدهن ولون الدم.. » بعد
هذا الجزء سترون»، قالها حسين عندما بدأ عمر فى ضرب يديه
ببعضهما غيظاً، وأصبح على ينفخ بشدة قشر اللب.. أحذية
ضخمة تضرب باباً لا يريد أن ينفتح، الشاشة تتسع تدريجيا
لجزء من سروال عسكرى وماسورة بندقية آلية.. ثلاثة أكتاف
هائلة تضرب الباب، فينفتح ضارباً الحائط خلفه.. لقطة بعيدة
لعجوز يجلس وقد أسند خده الأيمن على عصاته المنتصبة بين
ساقية، مواجهاً القادمين بعينيه الضيقتين ولحيته البيضاء.. شدد
التفافة ذراعه حول طفل فى الثانية يجلس على فخذه والذى
سكت عن مسح العصا بسبابته الصغيرة المبلولة وهو ينظر
ناحيتهم فى ذهول.. دون كلمة انبثق الدم من ثقب فى مقدمة
الرأس ليضرب عينى الطفل الذى سقط مع جده والعصا على

الأرض يصد عن عينيه الدم... ويبكى...

التفت حسين «بعد هذه اللقطة.. بعدها مباشرة» وابتسم.. الكاميراً تهتز فى حركتها خلف الظهور العريضة.. نفس الأكتاف تعامل باب الحجرة الذى ما لبث أن ضرب الحائط.. «الآن.. الآن.. انظروا»...

امرأة فى الركن تحيط بذراعيها بناتها الثلاث.. بعينين جاحظتين انحنت تدس عنقها بين رؤوسهن.. اقتربوا ..سحبت مصحفاً ضخماً من على منضدة مجاورة فسقط المفرش.. شهرته فى وجوههم.. جذبه أحدهم.. قذفه فى وجه حائط بعيد.. تفسخ .. تبعثرت آياته على الأرض.. مدت ذراعيها تقاوم.. ارتفع صوت ضحكة.. مزق.. صرخة.. توسل.. مدت الكاميرا يدها تتحسس النهدين.. السرة.. قناة العمود الفقرى.. طرحها أرضاً.. ابتسم حسين» ما رأيكم!! تكوم السروال العسكرى.. لقطة مكبرة لأصابع غليظة تتشبث بحواف ملابسها الداخلية.. جذبتها فبطأت حركة التصوير.. امتلأت الشاشة بكل التفاصيل فتوقفت لثوان.. فى بطء عادت تتابع لسانه الأصفر يبلل وجهها.. فمها ينفجر صراخاً عيناها تعتصران ما بداخلهما.. الساقان

المشعرتان تفتحان فى عنوة الساقين البضتين.. تصبب عمر بالعرق وهو يتابع الحركات التدافعية لمؤخرة الرجل العارية.. أصابعه المتآكلة الأظافر وقد هدأت عن التشبث بشعرها الطويل وسقطت فى شبع على صفحة من المصحف.. الشاشة تدور فى بقية الحجرة.. أكوام الملابس العسكرية.. الرجال العراة إلا من أحذيتهم السوداء، بين وقوف ينتظرون يضحكون بعوراتهم الضخمة وبين مفترشين للثلاث بنات.. لقطات متفرقة تتوالى.. امرأة نافرة النهدين تدفع بها يدين غليظتين فى وجه الكاميرا التى تلعقها صعوداً وهبوطاً.. طفلة فى السابعة بملابسها العلوية القصيرة يفتحون ساقيها عن آخرهما.. تصرخ.. يدفع أحدهم بأصبعه فينبثق خيط الدم.. جثة رجل نحيف مسجى على وجهه فى دمائه إلى جوار فراش تصعده الكاميرا حيث أحدهم يأخذ امرأة عارية فوقه.. بصوت لاهث أعلن على أنه ذاهب للحمام... مبتسماً استجاب حسين لطلب عمر وضغط على زر ليعيد اللقطتين الأخيرتين.

١٩٩٠م

١٢ مارس..

هانى على الكورنيش يلوك قطعة من العلك.. يضحك بأسنانه وعينيه وحاجبيه لكل فتاة قادمة، وهو يتابع الشقراء التى تتحرك داخل بنطلون أبيض ضيق، بينما السلسلة الذهبية تطيع خطواته فتبتعد ثم تعود لتضرب صدره العارى كثيف الشعر.

٣٠ مارس..

ملل وسيجارة رفيق متخمة بالحشيش.

٦ أبريل..

هانى فى غرفته المغلقة لم يهبط إلى الشارع منذ أسبوع.. مع ذقنه غير الحليقة تحركت أشباح راقصات السينما وازدحمت حجرته بأبطال الفيديو والمجلات العارية، وكلما خرج من الحمام تجنب نظرات والده.

١٥ مايو..

هانى يقرأ الكتاب الحادى عشر خلال ثلاثة أيام.. صحيح أنه لم يعتد هذا من قبل.. لكنه قرار أخير «سيقرأ كل كتب المكتبة العامة وسيصبح أكثر ثقافة من سعيد».

٤ـ أغسطس..

هانى يسـأل عن إجـراءات الهـجـرة إلى ألمانيـا.. ولن يعود لإكمال دراسته فى كلية التجارة من أجل خمسين جنيهاً يتسولها كل شهر.

١٦ أغسطس..

سيقرر الليلة هل يصبح جاداً وغامضاً مثل تشارلز برونسون أم مرحاً ونشيطاً فى بنطلون جينز مثل عادل إمام.

٢٠ سبتمبر..

الأستاذ عطا المحامى والد هانى يضرب كفاً بكف لأمر ابنه الذى أطلق لحيته ولبس جلباباً أبيض وأصبح يصلى الخمس فى المسجد.

٢٢ سبتمبر..

الجارة تقول للجارة إن بيت الأستاذ عطا نار منذ الصباح..
فهانى صفع أخته سميرة وهو يصرخ بأنها فاجرة تتمنطق
بحزام يجسد حدود خصرها.

١ أكتوبر..

فى المسجد يتساءلون عن سبب تخلف الأخ هانى عن صلاة
المغرب والعشاء.

٦ أكتوبر..

هانى على الكورنيش يلوك قطعة من العلك.

المنصورة

١٨/٥/١٩٩٠م

مقعد في القطار

ملعون هذا الظرف الأصفر الكبير المهترئ الزوايا.. المبقع بعرق يوليو.. المنتفخ تحت ذراعي بفضلاتي.. شهادة من الكلية.. اعتراف من الحكومة أني ولدت على أرضها.. بطاقة من السجل المدنى تؤكد أن صاحب الصورة إنسان له دم من فصيلة -O- .. رغم ذلك رفضوني.. ورغم ذلك لم أفاجأ.. على أرصفة محطة مصر استفز عطشي اصطكاك المفاتيح المعدنية بالزجاج المبلول.. لم أستسلم.. احتفظت بالقليل الذى فى جيبى والكثير الذى فى حلقى.. إذاعة المحطة تعلن عن عشر دقائق متبقيات على وصول القطار محددة رقم الرصيف الأكثر ازدحاماً.. أكره فنجان الشاى الذى ستقدمه نجوى فى المساء.. بعد الرشفة الأولى ستسألنى عن النتيجة.. بعد الثالثه ستغلظ نبرات أمها وهى تلقى بحزمة متربة من علامات الاستفهام..

رغم الضجيج سمعت خلفى من يهمس لجاره أن يسرعا لاستقبال القطار قبل دخوله الرصيف.. أسرعت.. أنا الآخر أريد

مقعداً قبل أن يسد هذا الزحام النوافذ والأبواب.. قفزت إلى ما
بين القضبان.. تركت الرصيف بطوله خلف ظهرى... اللعنة...
الزحام هنا يتسابق أشد عنفاً وصراحة... جرح الظمأ حلقى..
نصف دقيقة لن تضر.. دلفت يميناً بسرعة متقافزاً فوق
القضبان صوب صنبور يحمل الشمس على رأسه اللامعة..
يخرج من صرة حائط قريب.. تتوضأ تحته إحدى العفريتات
البرتقالية المبقعة بالزيت والشحومات.. أشاح بيده ضجراً «لن
تشرب.. قلنا ألف مرة إن هذا الماء خاص بعمال المحطة فقط»..
لم أجد رداً.. ولا وقتاً للتفكير فى رد.. كرر القطار فتح عقيرته
عن آخرها ليعلن وصوله ويهش عن وجهه الزحام.. عدوت
أقابله.. حاولت تفادى امرأة أمامى.. سقطت بين القضبان
وزحام الأحذية المتسارعة العاقدة حولها سحب الغبار.. أعطيتها
يدى وأنا أتمتم بإعتذار.. سبتنى ونهضت تلاحقهم.. صرخ
القطار.. فزعت إلى الخلف مفسحاً الطريق.. خطوتين أخريين
للزحام المتسابق على طوله.. الأيدى فوق الرؤوس تتعارك..
تتناوب التشبث بحواف الباب.. يركضون على الأرض.. يقفزون
إلى السلالم قردة.. يسارعون بالدخول.. مرق الباب مغلقاً

بالزحام.. لابد من الحصول على مقعد.. تنمرت لباب العربة الثانية.. لن أظل الساعات الأربع واقفاً محشوراً بين أقفية عرقانة.. سابقته.. تشبثت بحوافه.. لكزت ظهرى قبضة ثقيلة.. صوت أجش يأمرنى بالقفز بسرعة أو أن أفسح له المكان.. السلم مازال يسبق قدمى.. سب واحد يومه وهو يلهث.. سحب آخر الهواء بفمه فى صوت فج.. دفعنى الخوف من تطور ألوان الاعتراض إلى القفز فى نفس اللحظة التى قبضت فيها على كتفى يد غاصبة.. غليظة.. وبكل ما أوتيت من غيظ ونفاذ صبر جذبتنى.. خرجت حواف الباب من بين أصابعى.. عادت الأرض تجرى من تحت قدمى.. لم أستطع ملاحقتها ولا التوقف.. جريت وجزعى منحن تحت ثقل رأسى.. استقبلت بجانب وجهى اندفاع الأرض الخشنة.. كبرميل يدفعونه درت.. فى اللحظة التى حاولت فيها تحديد اتجاهى والتوقف فاجأنى عنقى مستقراً على قضيب حديدى.. بارد.. يرتعش مع الأرض تحت ثقل العجلات.. تبخرت دمائى.. مزقت عنها الأوردة.. تصافحت كل الأيدى القذرة فوق وجهى.. عضلاتى.. نبضاتى.. بطن العربة.. الظلام تحت القطار.. الأقدام التى مازالت تركض تسابقه.. حاولت رفع

رأسى.. العجلات الحديدية الرهيبة رهيبة.. ملأت أذنى صرخة
نجوى.. ورأيت القسمات ترتاح على وجه أمها.و ....
أرتعد.. أرتفع.. أرتفع.. سقف القطار يمر تحتى.. الأرصفة
تحتى.. باعة المثلجات.. القضبان تتلوى وتتقاطع خارجة من
المحطة لتمتد إلى بعيد.. دوار.. دوار.. غريبة هى الأشياء من
أعلى.. أرى الآن زحاماً يقفز من على كل الأرصفة ويسارع
ناحية جثتى..

اقتربت من فوق رؤوسهم وضجيجهم.. فاجأتنى عيناى
جاحظتين يملأهما رعب الثوانى الأخيرة.. فمى مفتوح تحشوه
صرخة.. دمى بركة تحصرها الفلنكات الخشبية بين القضيبين..
يدى متسخة تقبض بشدة على الظرف الأصفر.. لا أستطيع أن
أحدد من أى هاتين الفتحتين الدمويتين خرجت.. من التى هى
تحت رأسى المفصول بين القضيبين؟.. أم من التى هى فوق
عنقى المجزوز؟.. أسمعهم الآن يتصايحون بورق جرائد..
وبرفعى.. ما الذى ستفعله أمى حين تفتح الباب ويبلغونها؟.. لم
أقبل يدها هذا الصباح.. لم أشأ أن أوقظها.. أرى شاباً أنيقاً
يلف رأسى فى صحيفة.. حمل رجل على كتفة بقية جسدى

المغطى بالجرائد.. تدلى منديلى من جيب السروال.. العامل الذى كـان يتـوضـأ يصل خـرطومـاً طويلاً بالصنبـور الذى هو فى الحائط، ويطلق تياراً من الماء يغسل به القضبان والفلنكات من دمى.. قاومته قطعة حمراء من لحم عنقى ملتصقة بالقضيب لكنها ما لبثت أن اندفعت معه.. تابعت الحشد المهيب يخرج بى من باب المحطة.. القادمون إلى الأرصفة يبطئون من خطواتهم.. يتوقفون وهم يشيرون ناحيتى.. يتساءلون فى فزع عما حدث.. لاحظت أن حامل رأسى يتأخر بها.. ثقيلة هى رأسى.. أعرفها.. وأعرف وزن ما بها.. لكن.. ما هذا؟.. أين ذهب برأسى.. أين؟ .. ها هو يخرج من الباب الآخر.. يفتح حقيبة سيارته البيضاء.. الوغد.. لم يكن مسافراً.. كان فى المحطة فى انتظار شخص ما أو فى وداعه.. هه؟.. الملعون.. يرمى برأسى فى الحقيبة.. يغلقها عليـها.. يسـرع بإدارة المحرك.. ينطلق بسـرعة تصـرخ لهـا العجلات.. على الزجاج الأمامى لمحت هلالاً أحمر وتصريحاً بدخول السيارة كلية الطلب.. هه بقيتى؟.. الجنازة؟.. أين؟.. لم يبتعدوا.. ها هم يتحلقون تمثال رمسيس وقد اعتلى حامل جسدى قاعدته ناصباً بقيتى - البادئة بياقة قميصى الممزقة

والمنتهية بحذائى البنى المترب - هاتفاً فى الزحام بأن سياسة الحكومة الحالية ستجعلهم مثل هذا.. وأنه لا أمل إلا فى رحمة الله وفى أن تقبض يد حزب «الصباح» على مقاليد الحكم.. وبينما هو يتلو عليهم مبادىء الحزب شعرت بقوة ما تجذبنى لأستدير ناحية الفضاء فاستدرت.. كان الميدان الصاخب يبتعد.. يبتعد.. يبتعد.

فجأة

انفجرت الحرارة فجأة فى وجه الصخور.. تحرك ببطء مصهور الحديد الأحمر.. امتزج بمصهور الكبريت الأصفر.. زحف الاثنان مندمجين، ثعبان عريض هائل ملتهب يتلوى غضباً وغيظاً من شدة الحرارة فى بطن الأرض.. توهج بطن الأرض.. أصبح الجوف جحيماً.. لم تستطع بعض الصخور الاستمرار فى المقاومة فاستسلمت وانصهرت وسقطت وامتزجت.. جنت الحرارة.. ضغطت على أسنانها وهى تدوس جباه المزيج الملتهب الزاحف مصهوراً على الأرض، الذى ركبه الغيظ وأخذ يدور.. ويدور.. يتحسس مهرباً فى الظلام المضغوط الذى بدأ فى التوهة بالغيظ الأحمر.. الحرارة لا تطاق.. ولا الحديد.. ولا الكبريت.. ولا الصخور.. كل الوجوه حمراء.. الجميع يضغط.. يضغط.. ارتفع صرير الأسنان واختلط فانفجر الرعد يشق الجوف الهائل.. الحرارة تسلخ الظهور.. تشوى التسلخات.. ضربوا تجويف الأرض فى جنون فاهتزت.. تردد صوت الرعد ثانية..

انتفخ وجه المصهور الأحمر بفقاعات الغضب.. جاءت الحرارة بإمدادات من جهنم.. حرارة بشياطينها.. امتزج الرعد وجهنم والشياطين.. انفجر الجميع.. قذفت فوهة البركان حمماً ملتهبة إلى السماء هبطت وسالت على الجانبين.. تشكلت.. تجمدت أضلعاً.. طبقة أخرى من الحمم كست الضلوع لحماً واكتمل الصدر.. تمدد وتنفس بقوة.. خرجت من الصدر يد تحركت.. وبقوة.. رد لرئيسه الصفعة.

المنصورة

١٩٩١/٢/٣م

عشرة كونشينة

على جانبى المنضدة تلان صغيران من قشر اللب والفول السودانى.. جهاز التسجيل بصوت خفيض يسامرهم الأمسية.. صاحب البيت فى بيجامة زرقاء الخطوط وقد جر المقعد الضخم إلى منتصف المنضدة يشجع جاره الشاب على «الآس»، الذى أشعل الدور، ثم يجاور برأسه رأس صديقه العجوز يقترح عليه بعينيه أو بأصبعه أن يرد بتلك الورقة.. وبصوت عال يضحك سواء جلبت كسباً.. أو خسارة...

بعد نقرتين على زجاج الباب فتحته نبيلة ودخلت..

بحرص يفرضه ثقل براد الشاى وسخونته وضعت الصينية بينهما.. وهى تقلب له السكر استرقا نظرة جانبية داخل دخان الشاى وابتسمت.. انتبها على صوت رشفة رهيبة سحبها الصديق العجوز.. طلب نصف ملعقة سكر.. ثم ربعاً آخر.. انتبهت إلى عينيه الثقيلتى الجفون تستحلبان صدرها فعبست وانسحبت إلى غرفتها.. قال صاحب البيت - أكملا اللعب.

قال الولد الذى له رأسان متعاكستان، واحدة منهما علوية. الذى تدق حوله أربعة قلوب متوهجة الأحمرار: سنتزوج.. لن نخضع لأبيك.

قالت البنت التى لها رأسان متعاكستان - واحدة منهما سفلية، والتى تدق حولها أربعة قلوب يملأها الدم - إلى شائب.. يأمر بتاجين.. يخطط بلحية بيضاء مجدولة.

باللسانين الغاضبين والأربعة شفاه قال - أبدا لن أتركه يبيعك لصديقه الشائب.. قصر وعشرة صناديق من الذهب.. هذا ليس ثمنك.

مدت البنت يدها إلى وردة حمراء من ورقة «بتسعة» مجاورة :أبى غرس قلوبه الأربعة على أسنة رماح سوداء.

بعصبية ضغط عنق الوردة بين أصابعه: لهذه لا يعنيه أن يبيعك لشائب تحيطه أربع معينات مدببة.. ليس فيهن قلب واحد.

• • • •

فجأة.. قال الصديق العجوز للجار الشاب - أين البنت الرابعة؟

بنظرة عصفور ماكر ابتسم - لماذا تسأل عنها؟.

بحدة قذف قشرة لب متعلقة بشفته السفلى وصاح - بيدك وزعت الكوتشينة كلها.. ولم يهبط إلى الأرض إلا ثلاث بنات.

تدخل صاحب البيت - ابحثا عنها.. ربما تكون سقطت تحت المقعد.

• • • •

تحت المنضدة كانت شفاه البنت الأربعة فى شفاه الولد الأربعة.. بعدما انفصلا كانت قلوبهما الثمانية تدق بعنف على أبواب الدم...

وهو يلهث أكد الولد - سأواجه أباك.

• • • •

رغم أن هذا لم يكن فى صالحه أبداً.. إلا أنه احتفظ فى يده بورقة البنت التى عثروا عليها تحت المنضدة.. واستمر فى عناد يلعب بأوراق أخرى.. سحب من الفنجان الساخن - بالأمس ملأ العمال رأسى صداعا.. تشطيب عماراتى الثلاث السابقة لم يكن بهذا التعب أبداً.

ابتسم صاحب البيت ـ إذن.. سيكون لجارنا العزيز نصيب فى شقة عندك.. يريد الزواج هذا العام.

ضرب بعينيه عيني الجار : ثلاثون ألفاً.

ضحك صاحب البيت ـ لا.. لا.. من أجل الرسول الذى أوصى يا رجل.. فما زال أمامه عشرون للجهاز وعشرة للمهر.. و....

كشف عن البنت في يده.. واجهه بها.. هزها في تحد - كم معك؟.

• • • •

انخرس فجأة بكاء الولد الذى كان قد بقي وحده تحت المنضدة.

• • • •

بكل أرقامه وألوانه تكدس الورق على المنضدة.. برأسه جاور صاحب البيت رأس صديقه وأومأ إلى ورقة وابتسم.. وافقه.. ضربها فوق الورق.. وبتحد - وبكلتا يديه - أخذ يجمع كل ما على المنضدة.. الولد.. والبنت.. والشعرة.. والسبعة.. و...

كان يرى جيداً.. وجيداً جداً.. أن الورقة شائب وليست ولداً.. إلا أنه لم يعترض.

المنصورة

١٩٩٢/٨/١٦م

خلوی

التليفزيون عالى الصوت.. وهم يقهقهون .. وهى على الفراش تديرهم ظهرها.. والغطاء حتى أذنيها.. والطرحة السوداء تلف رأسها.. وكيس الحلوى قيد زراع.. فلماذا لا تزحف بأصابعها.. وتدخل الكيس.. وتخرج بواحدة؟.. رغم أن عبد السميع قد أكد عليها مرتين فى خجل بـ «أرجوك يا أمى» أن لا تأكل فى حضرة أولاده.. فصوت تلمظها يقرزهم.. ويدفعهم مرة أخرى للتمرد على استقرارها هنا...

«أخواتك سبعة.. بينهم أربع بنات.. فلماذا وحدنا نحمل الطين؟...

عندما تستحلب قطعة من حلوى.. أو قرصان من النعناع.. يتبادلون نظرات.. تفهمها ويخافها عبد السميع .. لكن.. التليفزيون الآن عالى الصوت.. وهم يقهقهون.. والغطاء حتى.....

بالإبهام والسبابة تقدمت خطوتين زاحفتين.. قاربت منتصف المسافة.. بغينيها مسحت ظهر يدها المرتعشة.. ياللعروق

الزرقاء.. النافرة.. المنتفخة كثعابين شبعانة ترتاح على ظهر بعضها.. يومها قبل يدها كثيراً بعد أن انقلب عنها واستراح على ظهره عاريا يلهث ويبتسم.. قال - سنسميه عبد السميع كى يسمع كلامنا وتسمع امرأته كلامه.

لا تذكر قط منذ جاءت هنا أنه خالف لبهية رأياً أو أمراً.. شافهت فوهة الكيس.. قطعوا قهقهاتهم فجأة.. لكن التليفزيون مازال عالى الصوت.. وبين أسنانهم لب يقصقصونه.. ولن يسمعوا إذا استحلبت واحدة.. طعمها الليمونى يبخر لسانها من عفاريت المرارة التى تسكنه.. تعرف الليمونية من بينهم.. تميزها بالغلاف الأزرق.. خرزة زرقاء دلتها فى خيط على صدر عبد السميع عندما شب فى السابعة.. ولما أراد نزعها ضربت يده عنها وقالت - أنت جميل كما البنت.. ولك طول وعرض.

قبضت على قطعة الحلوى.. كاد صوت الكيس يفضحها.. تصنعت شخيراً عالياً.. تسمعت رهيفاً.. لم يقسم أحد الأولاد لأبيه أنها ستأكل الآن.. وأنها ستتلمظ.. اطمأنت.. بحذر سحبتها.. بعينيها النصف مغلقتين - تأهباً لإتمام إغلاقهما إذا ما احتاج الأمر - لعقت بطن الكيس الصغير المنتفخ بالحلوى

الرخيصة.. يوم زفاف عبد السميع نثرتها على الرؤوس مع الشموع الرفيعة الملونة من صندوق يحمله خلفها ولدان.. قبلها لم يبرد وجه الفرن سبع ليال بين كعك متخم بالحشو.. وبسكويت.. و أوز بالأرز والكبد.. ودجاج يزخم الأنف برائحة الشواء.. بحذر بدأت تفض الغلاف.. طالعتها بطن الحلوى البيضاء.. أطلق لسانها بين شفتيها تياراً رفيعاً من المرارة.. أخذت شفتيها بين شفتيها مرتين.. ضاعفت من شخيرها وهى تلعن خرخشة الغلاف.. صاح حفيدها الأصغر بأنه لا يسمع المسرحية من الشخير.. نهض أخوه الأكبر معلناً لأبيه أنه ذاهب لينام.. وعبد السميع يحاول استبقاءهما.. وإقناعهما بمواصلة السهرة وبأنها نوبة شخير قصيرة ستسكت عنها لتوها.. فسكتت.. زحفت يدها ثانية بقطعة الحلوى.. بحرص شديد أغلقت عليها الكيس.

المنصورة

١٤/ ٧/ ١٩٩٣م

نزيف

خرجوا ولم يتبق سوى الحفيدين النائمين، أزاحت الغطاء بأصابع مرتعشة، قبضت على مسند الفراش زحفت إلى حافته.. فى بطء أرسلت إلى الأرض قدمين تنتفخ عليهما عروق زرقاء تتلوى وتتقاطع وتحاول الاختباء تحت الجلد.. حاولت .. بإصرار بإصرار أكثر.. استطاعت وهى تطلق آهة ضعيفة أن تقف بجسدها الذى ابتلع نصف طوله قوس كبير فى الظهر.. تحركت وهى تسند بيدها إلى الحائط... المنضدة... الباب.. الآن نعم.. لابد الآن فلو منحتها الفرص فرصة أخرى، فلن يمنحها الزمن زمنا آخر.. تلمح الموت الماكر يحاول الاختفاء خلف كتفى الغد أو بعد الغد.. لابد أن تدخل المطبخ لابد.. وأن تغسل أكوابا وأطباقاً وملاعق لحلق يسكنه ألف شيطان عطش لآخر قطرة تلمع فى قعر الكأس.. منذ سبعين عاما وهى امرأة ومن يوم أن أخرجتها البلدة من تحت أنقاض الدار الكبيرة ونقلوها إلى منزل ابنها المهندس أحمد، وسعاد تسكب البنزين على كل كلمة.. وتفتعل كل

أنواع المشاكل كى تقطع عليها خطواتها ناحية المطبخ.. مرة بالصياح ومرة بالسباب وأخيراً باليد.. يومها عادت إلى فراشها وتكفنت بأغطيته وأقسمت لنفسها بالأ تخرج منه حتى تموت.. تركت الجميع يقتنع بأن الشيخوخة قد غرست أنيابها السبعين في الظهور والتهمت ما تبقى من العافية فأصبحت تأكل وتشرب في الفراش، ولكن بحذر شديد من تناثر حبة أرز أو كسرة خبز على الملاءة وإلا فلتتنل من لسان سعاد وطأطأة رأس ابنها ماتنال.. وصلت المطبخ.. في الحوض ثلاثة أطباق لن تقربهم فسعاد لا يفوتها الكوب إذا تحرك.. تلفتت حولها في بطء.. الأشباح الضبابية للعلب البلاستيكية والأكواب والأطباق والأوانى كلها نظيفة ومرتبة.. التفتت ثانية إلى الحوض.. الأطباق النظيفة تعلوه صفوفا على أربعة أرفف، بالأصابع العظمية ليدها اليسرى قبضت على طرف الحوض الرخامى وأرسلت اليمنى فى الهواء فى محاولة للوصول إلى الرف الأول.. ستلوث طبقاً بقشر البرتقال.. ببقايا البطاطس.. ثم تغسله وتعيده وكأن شيئا لم يكن.. قوس ظهرها عنيد.. عنيد.. حاربته بجذعها، استطالت قليلاً فاغتاظ ولم يترك ليدها حرية العودة بطبق واحد بل بصف

كامل من الأطباق انفجر داخل الحوض.. تناثر ملح الزجاج فى المطبخ كله.. ضربتها نبضاتها عند مؤخرة الرأس.. رأت دماء تختلط بالزجاج فى الحوض.. رفعت يدها.. اكتشفت فى الجانب السفلى جرحاً عرضياً كبيراً وساخنا خرجت أحشاؤه.. استدارت.. جرجرت ساقيها إلى الحجرة وهى تغلق الجرح بكف يدها اليسرى.. تسللت إلى الفراش.. وما كادت تستقر فيه وهى ترتعش حتى سمعت صوت الباب وسعاد وقد عادت من السوق.. مرت دقائق ثوانيها أشواك.. سمعت صراخها فى المطبخ.. لمحتها تجرى إلى غرفة الطفلين.. سمعتها تكيل لهما الضرب وتسأل فى غيظ عن الغبى الذى ستكسر رأسه كما كسر الأطباق.. بينما الحفيدان يبكيان ويقسمان بحياة «بابا» أنهما كانا نائمين.. وكلما صفعت أحدهما ارتفع صراخه وهو يستغيث بالجدة، التى بدا صوت بكائها يتعالى تدريجيا، وهى تخفى يدها تحت الغطاء بينما قطرات الدم تتساقط على الفراش بانتظام.

الشيخة مريم

تو أن هبطت من الميكروباص.. وعبرت الكوبرى الخشبى مثقلاً بحقيبتى.. همست لبلدتى أنى أعشقها.. هواؤها القادم برسائل الحقول.. أسطح البيوت تحت حزم القش.. بهائمها الضخمة وهى تسير بتثاقل وتؤدة تهش عن مؤخرتها وتمضغ فى فمها ما تبقى.. الأرجوحة الصدئة يصرخ عليها الأطفال ويضحكون.. كان ابن عمتى - الذى صار اليوم مهندساً بإحدى شركات المقاولات - يصر على مشاركتى ركوبها.. والمنضدة الثانية فى الفصل.. ساندوتش الفسحة القابع فى ركن كيس الكتب.. التسلل فى الحصة قبل الأخيرة نصطاد السمك ونزور مقام الشيخة مريم.. ولأن عراكاً قديماً فى البلدة قام على أحقية كل فى ملاصقة المقام لبيته الذى يبنيه تبركاً.. فقد اتفقوا والدماء والتراب على الوجوه عند زوايا الفم أن لا أحد.. وأن يتركوا حوله دائرة من أرض فضاء.. داروا حولها بسور من الطين المضروب بالقش.. رغم أن ابن عمتى كان لا يترك لنخلة بلحها إلا أنه لم يفكر فى حجر صغير يرسله ناحية أى من

النخلات الثلاث المثقلة بالبلح أو العصافير، التي كانت تتفجر بالزقزقة وضربات الأجنحة بمجرد عبورنا فتحة السور الخلفية.. فيتساقط البلح على رؤوسنا وتحت الأقدام..

وأنا أعطي الحقيبة ليدي اليسرى وأمسح بجانب بنطالي بطن اليمنى الملتهبة تساءلت «لماذا كل هذه الأثقال رغم أن زيارتي لأمي لن تمتد لأكثر من أسبوع؟»..

كانت من حكايات أمي أمام الفرن أنها تونسية فرت من قسوة أبيها.. وأنها عبرت البحر سيراً على وجهه.. وأنه كان للبلدة في عهدها حال غير الحال «فدان الذرة الواحد كان يلقى لأبيك بثلاثين أردباً».. وقد ماتت عذراء فلقبوها بالشيخة مريم.. قبل الامتحانات كنت أضاعف المقتطع من مصروفي لأضعه في صندوق النذور.. بينما يضاعف ابن عمتي معيار القمح الذي يسرقه من خلف ظهر عمتي.. كل ما في الغرفة يمسح على رؤوسنا وصدورنا بيد حانية كبيرة ونحن ندعو ونبتهل.. هواؤها.. ضوؤها النهاري القادم بين قضبان النافذة الصدئة مع هديل حمامة وحيدة.. زقزقات العصافير.. حركة السحاب في الخارج.. «يا أيتها النفس المطمئنة....» الموشاة بالقصب على ظهر الغطاء الأخضر الذي

يغطي صندوقها.. في مرة - لا أذكر سببها - بكيت...

اللعنة على الحقيبة.. وعلى المسافة البعيدة حتى الدار...

المقام في الشارع بعد القادم.. سأركن إلى ظله أستريح.. أشرب من ماء القلل المعطر دائماً.. أترك قلبي في يدها تنزع عنه من أشواك المدينة.. باباً زرعوه في وسط السور تكشف رائحته حداثة طلائه.. كاد يصطدم بي طفل يجري خارجاً وقد قبض على عصفورة ومن يده تتدلى «نبلة».. خطوتان إلى الداخل.. رغم ذلك لم تنفجر العصافير بالزقزقة.. لم تسقط النخلة بلحاً...

كعادته مفتوحاً باب حجرتها.. ما زلت أيتها التونسية المباركة ملجأ كل الأطفال.. انتبه أحدهم إلى وقوفي.. سارعوا بالخروج وهم يتصايحون.. ضاحكين.. ملوحين بأياديهم القابضة على أشياء ما.. ابتسمت.. دسست يدي في جيبي.. أخرجت خمسة جنيهات.. لمحت ثقباً كبيراً في ظهر الغطاء الأخضر يلتهم طاء «المطمئنة».. أخرجت خمسة أخرى.. تقدمت.. طالعني صندوق النذور فارغاً.. مفتوحاً في عنوة.

المنصورة

١٢/ ٥/١٩٩٦م

النار والعناكب

انقبض.. فأرض المطار خالية تماماً إلا منه.. هدير الطائرة الواقفة خلفه يأكل أذنيه.. الحقيبة ثقيلة فى يده.. ثقيلة.. رغم أن كل ما بها صورة لنفسه وهو صغير.. وصورة لها وهى كبيرة.. مع ذلك لم تأت تودعه.. من الاتجاه الذى كان ينتظر مجيئها منه كانت تهب رياح شديدة لها أتربة تأكل العينين، أعطى ظهره للرياح ووجهه للطائرة، فلمح - فوق النافذتين الأماميتين تماماً - نظارة طبية ضخمة يعتليها حاجبان كثيفان.. تحتها تحرك فجأة فم ناقص الأسنان ملأ أذنيه عن آخرهما بصدى صوت أبيها «فقط لإصرارها عليك سأمنحك عاماً آخر».. اختلط رعبه بذهوله عندما انتبه إلى أنه جالس فى فم أسد.. اطمأن عندما اكتشف أنها أرجوحة بشكل أسد كانت تروح به وتجىء منذ أكثر من ساعة.. بعد ما ابتعد عنها خطوتين دائخاً، سمع خلفه زئيراً فجرى.. تحت صنبور وجده معلقاً أمامه فى الهواء.. وقف يلهث.. شرب.. ملأ كفيه عن آخرهما وضرب بهما وجهه - فزال

بعض من دوار الأرجوحه.. فاجأته على وجهه رائحة بنزين.. التفت إلى الصنبور مغتاظاً فلم يجده.. أخرج من جيبه صندوق الثقاب وألقى به بعيداً كى لا ينسى ويشعل سيجارة.. انسحب من أذنيه فجأة هدير الطائرة.. التفت بسرعة.. ارتعب.. دار حول نفسه.. بحث عنها فى الهواء.. خلف الحائط.. تحت ورقة ضخمة كانت ملقاة على الأرض فلم يجدها.. فى يمين أعلى الورقة قرأ اسم طبيب أبيه.. واسم أبيه «وقبل الغذاء» «وبعد العشاء» و«حقنة كل ١٢ ساعة».. داهمه شك بأنه لن يسافر فسقط قلبه من شاهق نحو كف هائل ضم أصابعه بقوة تريد غرس الأظافر وانفجار الدم.. تحسس التذكرة فى جيبه.. أخرجها ففاجأته قوة تريد جذبها إلى الأرض.. بسرعة قلبها.. على ظهرها كانت تتحرك عناكب غاضبة لها أذرع ووجوه آدمية.. عرفهم.. قال عنهم أشدهم سواداً «سنأخذها.. أنت لن تستطيع رد ثمنها إلينا».. ثم التفت إلى بقيتهم وأومأ فجذبوها جذبة عنكبوت واحد وهبطوا بها إلى الأرض، انحنى إليهم والتقط طرفها قال: «من فضلكم» فازدادوا بها تشبثاً.. فاجأه هدير الطائرة خلفه وقد عاد ثانية، فانتزعها بسرعة وفى عدوه سحق معظمهم، غير أن

أحدهم كان قد تمكن من تسلقه وعند أعلى الجورب عضه،
فصرخ وضرب حذاءه فى الأرض فسقط عنه العنكبوت، وانقلب
على ظهره يضرب الهواء بأزرعه الآدمية الصغيرة وهو يصرخ
ويبكى ويسبه بأمه.. جذبته ألفة الصوت.. تيقن من خاطره
حينما لمح فى وجه العنكبوت وجه زوج خالته.. بخيل وله واحد
وتسعون جنيهاً.. قبل الطائرة بأمتار وقف، التقط أنفاسه.. من
جيبه الأيمن أخرج عقد العمل.. (المهنة/ مندوب مبيعات).. من
جيبه الأيسر أخرج (تشهد كلية العلوم أن/......بحذر اقترب
بالعقد من الشهادة وبمجرد أن لامسها اشتعلت فيها النيران..
سمع بداخلها طقطقة ستة عشر عاماً.. بوجهه علقت النار
فجأة.. فتح صنبور البنزين اللعين فمه وقهقهة.. قهقه.. احترق
صراخه.. أخذ يضرب الهواء بوجهه يمنة ويسرى واللهب يزأر
ڤور.. ڤووو.. الدنيا كلها تخرج له لساناً طويلاً من لهب.. انطفأ
وجهه فجأة.. لم يتحسسه.. ولم يفكر فى سبب.. أسرع يجرى
ناحية الطائرة.. بمجرد أن اجتاز بابها أقعلت.. لم يجد مكاناً..
انحشر بين زحام الواقفين فى صمت.. فاجأته وجوههم
المحترقة.. جميعهم وجوههم محترقة.. قبل أن يتحسس وجهه لمح

المضيفة تحاول شق الزحام عابسة، وهى تضع خلف أذنها قلماً وتنقر بآخر على المقاعد تطلب التذاكر.. دفع إليها بتذكرته.. بمجرد أن مدت يدها وتناولتها ارتجت الطائرة بعنف... ارتفع الصراخ.. صراخ.. طاااخ.. خدر وظلام صامت لدقيقة انقطع فجأة ليجد نفسه فى الهواء بين الشعلات الصارخة الضارية وجهها وصدرها وبطنها شعلة مجنونة تصرخ بهياج شديد.. حاول أن يستيقظ كى يتأكد أنه نائم.. حاول أن ينام كى يتأكد أنه مستيقظ .. لم يستطع.

٢/ ١/ ١٩٩٢م

شعرة بيضاء

مازالت بالكوب على المكتب - بجوار جهاز التسجيل - رشفتان باردتان من الشاى.. قبل أن يعود بجبهته إلى الورق الأبيض المرتفع أمامه طرقع أحد أزرار الجهاز.. انتبه إلى انتهاء الشريط.. أخرجه.. قلبه في يده.. طنت ذبابة.. تابعها.. استقرت على باب غرفة مكتبه الذى اعتاد منذ ثلاثة أسابيع تقريباً أن يظل مغلقاً عليه بعد الغداء مباشرة.. منذ يومين سأله عادل - لماذا يا أبى؟،، ما سر هذا الشريط الذى لا تريدنا أن نسمعه معك؟.. لماذا تخفيه عنا كلما خرجت؟.

قلب الشريط فى يده ثانية.. باهت لون وجهه الورقى.. تسعة أعوام منذ طلب من أخية أسطوانة الفونوغراف وأفرغها فى بطن هذا الشريط.. مسح بيسراه على رأسه.. استقرت شعرة بيضاء على زجاج المكتب.. ضغطها تحت مقدمة سبابته.. التصقت بها.. رفعها تحت عينيه.. بيضاء فى صراحة مرعبة.. رفعها أكثر.. أكثر.. انفجر فجأة بياضها فى عينيه.. انتشر تماماً.. فى

ضباب البياض تحركت أربعة أشباح.. زحفت الملامح تفترش وجوههم.. المرحومة أمه وشقيقه الأكبر والأصغر وهو فى مقعد خيزرانى يتوسط جلستهم.. يرتشفون شاياً.. ينتظرون يومها عودة المرحوم أبيه.. فقد اشترك كل مرؤوسيه وزملائه فى إقامة حفلة بمناسبة خروجه إلى المعاش.. يقودهم الأستاذ حامد الذى تسلم منه بالأمس مفاتيح مكتبه.. كان كثيراً ما يقول - حامد ثعبـان لا يكف عن الفح لى فى الزوايا.. ينتظر اللحظة التى ترتفع فيها رأسه إلى عنقى.

لم يذهب أحدهم معه إلى الحفلة.. يعرفون تقاليدها.. خطب مـوثرة.. وفى النهـاية هدية باسم الجمـيع.. ظلوا يخـمنونهـا ويتراهنون.. وعندما فتحوا لجرسه الباب فاجأهم بوجه أكبر سناً من وجهه الذى خرج به.. يحمل على صدره صندوقاً ضخماً.. اندفعوا إليه.. مزقوا عنه غطاءه.. تسابقوا بأيديهم إلى أحشائه.. هللوا.. برفق أخرجره.. فونوغراف رائع.. انطلق أخـوه الأكبـر إلى الشـارع.. بعد ساعة عاد يلهث وهو يحمل أسطوانة - كل - منا يسجل كلمة بمناسبة الفونوغراف الجديد.

تناوبوا.. ألقى بنكتة وتاريخ اليوم.. تلعثم أخوه الأصغر وهو

يسجل توقعاته لمستقبله، وفى النهاية صاح بأنه يحب أمهم كثيراً.. فضحكوا.. وعندما جاء دور أبيهم الحزين رفض صامتاً.. فقط بحركة من أصابع كفه المفرود.. بعدما ألحوا قال
- بشرط.. سأكون وحدى.. ولن تسمعوا ما سأسجله قبل موتى.
وافقوا، فى صمت تداولت فيه عيونهم التساؤل.. وفى بطء خرجوا...

عادت الشعرة البيضاء على مقدمة سبابته صغيرة كما كانت.. انتبه إلى الشريط فى يده.. أعاده إلى باب التسجيل.. أغلقه عليه.. كان صوت دورانه إلى الخلف خشناً.. عند دورة بعينها رفع أصبعه.. ضغط زر التشغيل.. رفع درجة الصوت.. كان صوت المرحوم أبيه مختنقاً لا يستطيع تسجيل كلمة واحدة.. فقط يبكى وينهنه.. يبكى.. و.. ينهنه.

المنصورة

١٩٩٤/٣/٧م

شجرتان

ارتعد فجأة مدير مديرية الأمن - أسكتوا هذه العصافير.

للجانب الغربي من المديرية حديقة تنتهي عند السور الحديدي بشجرتين عليهما نصف عصافير المدينة.. فكل شجرة في المدينة يبيتون عليها يتخلل فروعها في الليل ضوء.. يقف الضوء عند العش.. تك.. يفقد العش عصفوراً.. تك.. يسقط فرع يحمل ورقتين أو ثلاث.. تك.. يفقد عش آخر عصفوراً أو يفقد نفس العش عصفوراً آخر.. ولا تملك من جانبها إلا زقزقة غريبة على الليل الذي يربطها إلى أشجارها فلا تفكر في الطيران. أوفرار..

أما هنا.. على هاتين الشجرتين القليلتي الأوراق أبدا.. المنتصبتين عند السور الحديدي.. فلا أحد يتسلل في الليل بضوء.. ولا يسمع تك.. ولا يفقد عصفور.

لم يتبق من النهار إلا ضبابه.. بدأت الجموع تدور فوق الشجرتين وهي تفرد أجنحتها وتملأ فضاء المديرية زقزقة.. تدخل الشجرتين من كل أبوابهما.. تتأرجح الأغصان لثقل ما

يهبط عليها.. ولأن العصافير أيضاً تتقافز قفزات قصيرة داخل الشجرتين قبل أن تزحمهما تماماً ويصعب مجرد التحرك...

امتلأت الشجرتان عن آخرهما.. بدأ الليل فى الالتفاف حولهما.. سكون تام إلا من زقزقة عصفور يعتدل فى نومته.. أو اهتزازة ذيل عصفور آخر يمر به حلم...

فجأة...

انفجرت بالضوء مصابيح ضخمة.. كاشفة.. قاسية.. تطوق مع أشباح الجنود الشجرتين.. تمددت ظلال الجميع على عربات الأمن الضخمة المتراصة فى البعيد.. عصفورواحد انطلق فزعاً من إحدى الشجرتين ململماً وراءه صوت جناحيه...

صوت أجش زعق بكلمتين ثم صاح صيحة آمرة.. تك تك تك.. تتساقط عصافير مضمومة الأجنحة.. تك تك.. تنغرس مناقيرها فى الأرض.. تك تك.. قش الأعشاش يتبعثر فى الفضاء.. عصافير تفزع فرادى هاربة بأجنحتها إلى .. تك.. ليل المدينة.. تمر ظلالها ضخمة على.. تك تك.. عربات الأمن البعيدة.. تك تك.. فروع صغيرة تتطاير تطردها ثقوب نارية تتوهج على جذع الشجرتـ.. تك.. ين فلا تلبث أن تنطفىء باعثة رائحة شواء اللحاء

ـر.. تك تك تك.. يتتابع فى صوت مكتوم ارتطام اللحم

ى.. واحد على ظهره يضرب الهواء برجله اليمنى.. تك..

نشع مكان اليسرى بقعة دم.. تك تك.. صغار لحميون..

ـم صفراء.. جفونهم لم يسقها الضوء بعد.. ولم تقترب من

ك.. ضـهـا شـعـرات الزغب.. تك تك.. تتناثر مع بقـايا

ش على الأرض المعشوشبة.. لا تأتى إلا بانتفاضة واحدة

تدهسها أحذية الجنود الثقيلة.. السوداء.. تك.. فيختلط

ـدمها بالـ.. تك .. قش بأحشائها.. تك تك.. عصفوران على

اشتبكت مخالبهما الصغيرة المضطربة.. تك تك تك.. قبل

ـصلا أسرع الحذ.. تك.. اء الأسود الثقيل.. طار واحد..

ـرجت عين الآخر.. تك.. تك.. ومات.

ساعة...

ت رائحة ثقيلة تزخم سكون الليل.. الشجرتان خاليتان تماماً

ـراق.. يكشف عليهما ضوء القمر البعيد.. البعيد.. خيوطاً

ان.. وأعواداً من بقايا الأعشاش تتدلى على بعض الفروع.

المنصورة

١٢/ ٥/ ١٩٩٥م

عودة الطيور البيضاء

تزاحمت القرية كلها حول فدان أبى حمدان بعد أن انتشر الخبر.. فسحابة من طيور بيضاء ظلت تحوم فوق الغيطان ومنذ ساعة هبطت كلها عنده.. الجميع لأنه رجل طيب.. زاحم الأطفال بمناكبهم وأطلوا على المشهد برؤوسهم التى شقوا بها تلاحم الحشود الواقفة على أربعة جسور تحيط الفدان. الذى يغطيه الماء وينتظر شتل الأرز.. راهن طفل يرتدى طاقية طفلاً آخر حافى القدمين على أنهم يزيدون عن المائة والخمسين، ثم بدأ العد بصوت مزدوج عال...

على سطحه اللامع يضاعف الماء زحام الطيور بينما تتشابح تحته أنصاف سيقانهم الحمراء المنتصبة كأعواد الحطب الهندى.. الأعناق الطويلة تدفع بالمناقير داخل الطين تطلب الدود، ليظهر فدان أبى حمدان مزروعاً كله بأقواس من الأعناق الطويلة البيضاء...

أخرج اثنان فى نفس الوقت منقاريهما وقد تدلى على جانب

كل منهما دودة حمراء طويلة، التهمها أحدهما أسرع من الآخر، وعاد يبحث فى الطين من جديد.. لم يلتفت الشيخ عبده ليعرف من الواقف بجانبه لكنه قال له مغتبطاً - من عشرين سنة ما حدش شافه.. هرب من يوم ما حس إن الكل عاد بيحب لحمه.

رفع إسماعيل بيده طرف جلبابه كاشفاً عن الطين المتجمد على قدميه ورقص - البركة رجعت بلدنا تانى ياولاد.. رجعت تانى.

تلاحقت فى فضاء الغيطان طلقات زغردتها ثلاثة ألسنة حمراء طويلة وسريعة.. قال متولى وقد أخذ أطراف جلبابه بين أسنانه وهبط إلى أول الأرض - اسمعوا يا جماعة.. حد يجيب لنا بسرعه شبكه كبيرة.. البلد كلها هتتعشى لحمه الليلة.

انزعج واحد منهم.. طار إلى آخر الأرض.. شوح إسماعيل بيديه - بتقول إيه يا متولى؟.. إحنا ما صدقنا إن السما رضيت علينا وبعتت لنا بركتها تانى.. ولا يمكن نكرر أبداً غلطتنا القديمة.. ويكون فى معلومك.. أنا اتفقت مع أبو حمدان صاحب الأرض.. ومع شكرى وحسن وأبو إبراهيم إن إحنا الخمسة هانحرسهم طول ما هم فى بلدنا.. ولا يمكن حد يقرب منهم

وكفايه اللى جرى لنا بذنبهم.. فاهم ولا أفهمك كمان؟.

همهم بعض الرجال.. تلمظت كل النساء..

قرب الظهر انصرف الجميع وبقى الخمسة..

بعد العصر.. كانت خمسة أوتاد غليظة تقف فى الفدان.. من كل وتد تخرج عشرات الخيوط ينتهى كل منها بشص حاد معقوف الوجه تخفيه داخل بطنها دودة شهية حمراء.

المنصورة

١٩٩١/٩/١٦م

العمامة

حشرت ثلاثة من أصابعى بينى وبين المضغوط إلى جوارى..
اهتز الميكروباص.. استطعت أن ألتقط من جيبى حافة المنديل..
انتظرت مطبا آخر كى يهتز ثانية وأخرج به.. فى توجس
رمقنى.. يطالع ما ستخرج به يدى من بين جيبى وجيبه..
اللعنة.. رئتان تنتفضان.. هواء.. سأختنق... بلا جدوى حاولت
فتح النافذة ثانية.. سأختنق.. حواف العمامة القذرة تعلو الجشع
الذى يضغط الفرامل كل مترين ليلتقط أنفاً آخر يفترس ما تبقى
من أكسجين... العطن يتفجر بين الأقفية العرقانة، وجه عجوز
من بين تلاحم الأكتاف ينظرنى فى جلستى وقد تجمعت ملامح
وجهه تقاوم البكاء.. فخذ المضغوط و حذاؤه يكبلان ساقى.. ليس
فى يدى أيها الطيب أن أقف لأجلسك.. آه.. أخيرا مطب..
المنديل كاملا أصبح فى يدى.. قبل أن أكمل مسح وجهى
فاجئتنى الفرامل.. ضغط أصبعى المنديل فى عينى اليمنى..
اللعنة.. بعينى اليسرى لمحت ذراعين تحاولان التشبث بباب

الميكروباص.. قال لى المضغوط ـ لا حدود للجشع.. سنموت.. وما زال يلتقط آخرين. لم يستطع البدين الواقف أن يلتفت بوجهه وهو يشهق - حرام.. والله حرام.

التهبت عينى اليمنى.. طفرت دموعا حارقة ـ صمتنا تصريح لأن يفعل ما يشاء.

- أصبت يا أستاذ.

من الخلف جاء صوت - لابد أن نلقن هذا البرميل درسا.

- إذا وقف ثانية سنهبط جميعا ولن ندفع مليما واحدا.

- نعم.. نعم.. فليخبره أحد بهذا.. أخبره بهذا يا أستاذ.

عند الباب صاح المتشبث - تنح قليلا قلت لك.. سأسقط فى الشارع.

صحت وقد خف حرقان دموعى - يا هذا.. اسمع.. لو توقفت ثانية فسنهبط جميعا.. ومليما واحدا لن نعطيك.

- نعم.. نعم.

- ولا مليم.

- سنموت هكذا يا ناس.

- قلت لك سأسقط فى الشارع.

رفع الجشع الأغنية الشعبية الهابطة يغطى صوت الجميع..
فرامل مفاجئة.. أصابع تحاول التشبث بالمتشبثين على الباب..
حملتنى ساقى فى غضب.. وقفت - اسمع.. لن تتحرك.. سنهبط
جميعا هنا.. وسنبلغ رقم سيارتك للمرور.. ولن تأخذ مليما.

دفعت ساقى المضغوط إلى جوارى وخرجت من المعقد - هيا
يا جماعة.

رددوا - هيا.. هيا.

لم أنتظر إفساح الطريق.. ضغطت المناكب.. تمزق الزر
العلوى للقميص.. خسارة العمامة ستكون أفدح.. نزلت إلى
الرصيف.. هواء.. أريد أن أرى وجهه الآن.. خلف المقود طالعته
مبتسما.. سأراه بعد أن تكون السيارة خاوية على مقاعدها..
انتظرت.. قهقهت العمامة.. انتظرت.. تحركت السيارة.. من
النافذة لمحت المضغوط وقد ارتاح على المقعد.. يرمى بأصبعه
إلى جاره ناحيتى.. وعلى وجهه ابتسامة راحة.. انتظرت السيارة
القادمة.. تمنيت أن تكون مزدحمة.. مزدحمة تماما.

٢٠/ ٩/ ١٩٩٤

سيفعل الولد ما يشاء

ليس أمامك خيار ثالث.. إما بترها فى التو تحت الركبة.. أو أن نترك للغرغرينا الزحف على بقيتها ولن يكون أمامنا إلا الساق كلها.. كلها...

أخذ ظهره من مسند المقعد.. أراح بطن ذراعه على حافة المكتب.. تعجب من أن ساقه اليمنى هى التى ترتعش الآن.. تشبح الطبيب تماماً ولم يترك خلفه للرؤية إلا بياض البالطو تتوسطه النظارة وقد تضببت.. وتضخمت..

- أعرف أن ساقا ونصفا لن تكفيك.. لكن هذا خير من واحدة.. بل من فراغ نصفه العلوى راسخ على كرسى متحرك.

حينئذ لن يستطيع دخول الفصل.. سيفتقد استياقظة السادسة صباحاً التى يكرهها.. وسيكتفى بالدروس الخصوصية.. لكن.. هل سينتظرونه فى حجرة المكتب ليدخل عليهم وهو يدفع بيديه العجلتين الكبيرتين حتى يستقر بينهم على المنضدة؟.. أم سينتظرهم هو؟.. وعندما يدقون الجرس ستتنبهه

زوجته قبل أن تفتح الباب أن يسدل الغطاء جيداً.. الأرجح أنهم لن يلجأوا لمدرس مكتئب دائماً.. يتحرك على عجلتين يتشابك عليهما زحام من سلوك فضية...

– على كل حال أنت الذى أهملت الكسر ولم تأت إلا بعد فوات الوقت.

بدأ العشرات فى صفين يتحركون بكراسى العجل المهترئة – اللافظة أحشاءها – يدخلون رأسه تباعا.. يدفعون فى الأعين ما تبقى من أفخاذهم ضخماً.. مرتعشاً.. عارياً إلى حواف الملابس القذرة.. ولكى يستثيروا المزيد من شفقة الشارع يبالغون فى صبغ البتر باليود.. ويطلقون من أكتافهم المغروزة فى أرض المقعد أذرعا طويلة مبسوطة الأكف..

– نصيحتى الشخصية أن تسجل الآن إقراراً.. وفى الغد تأتى مع زوجتك و.....

فى المرة القادمة سترتعش تحته وهو يغطى من ساقها النصف وستغمض عينيها على تقزز من ملامسة بقايا ركبته لركبتها..

– ولا أعتقد أن التكاليف ستزيد عن الثلاثة آلاف و...

سيفعل الولد ما يشاء.. سيسب أمه.. وسيجرى منه إلى الشارع متيقناً بأن الصفعة لن تطوله.. إلا إذا داخلته الشفقة وعاد ليقف أمام الكرسى.. مصعراً خده...

- كما أن العملية لن تستغرق أكثر من الساعة والنصف...

بالمشارط سيدورون فى اللحم حول الركبة.. ستنزف الأوردة.. وستتدلى مهترئة فى انفعال.. وسيتساقط الدم إلى الأرض رغم حرص الممرضات وقبضات القطن الضخمة.. وعندما ينكشف العظم سيستخدمون المناشير الضخمة.. شرر.. شرر.. شرر.. ورغم سطوة التخدير ستختلج أصابع قدمه الطويلة الأظافر.. وعندما يفصلونها تماماً سيلقون بها إلى الـ... هل سيلقون بها فعلا؟.. أم سيسلمونها له فى لفافة تتسلل من ثناياها بعض الشعيرات ليدفنها بنفسه؟...

- فيم صمتك هذا؟.. الوقت لم يعد يسمح.. إما نصفها فى الغد.. أو كلها بعد أقل من الشهر.. هه.. لا تتردد.. كن شجاعاً وأعطنى إجابتك.

- أنت ابن كلب يا دكتور.

عندما استقرت به خطواته فى الشارع لاحظ أن الزحام

يتحرك بأشد وأسرع مما عهد.. المارة.. السيارات.. الدراجات.. عربة الكارو التي ينادي عليها جلباب متسخ بصوت عال لشيء يبيعه. إشارة المرور تلهث ألوانها.. سينتظر الشهر.. فالخير أن يقفز من الشرفة بساقين على أن يقضي بقية عمره مبتوراً وأن يبعث يوم القيامة وتحت إبطه مرتكز خشبي.. أبطأ وهو يتابع المارة يمرقون بين العربات المسرعة...

هذا الطبيب يبالغ قليلاً.. تحت الركبة ليس نصف الساق بل ثلثها.. نعم.. ثلثها فقط.. هل يعود إليه؟.. ويعتذر؟.. ويسجل الإقرار.. تثاقلت خطواته أكثر.. تابعهم يتزاحمون.. يدقون الأرصفة.. سيقانهم قوية.. وكثيرة.. كل منها ينتهي بحذائين.. توقف ليفكر.. توقف تماماً.

المنصورة

١٩٩٤/٢/١٥م


صيد

ارتج صندوق العربة المظلم.. شدد قبضته الصغيرة على الحواف حتى لا يسقط إلى الأسفلت الهارب من تحت العجلات.. بكى فجأة الولد الآخر الجالس على أرض الصندوق.. صفعه الشاويش ذو الشارب الضخم فشنف قليلاً ثم سكت...

تابع أعمدة الشارع تلاحق بعضها.. تلهث اصفراراً شاحباً تحت وطأة الضباب.. دهس الشاويش بحذائه الميرى الضخم عقب سيجارة.. الصرير المعدنى للصندوق المتهالك يسحق الأعصاب.. اصطكت أسنانه.. باردة جداً الساعات الأولى للصباح الشتوى.. سمع أكثر من نصف اللب يتساقط على الأسفلت وهم يسحبون الصندوق الزجاجى الصغير من تحت رأسه التى كانت مخدرة بحلم طويل، رأى فيه أمه التى ماتت تلح عليه أن يأكل..

دفس يديه الصغيرتين فى الجيوب المدلاة من بيجامته.. خرج أصبعه من ثقب الجيب.. لم يسحبه.. كان يرتعد ويضغط بيديه أكثر على قاع جيبه...

فرملت السيارة فجأة.. ضرب الضابط الجالس فى الكابينة الأمامية على الباب دون أن ينزل.. قفز الشاويش إلى الخارج.. فكر هو الآخر أن ينزل ليبول.. بقى جالساً فى مكأه.. هل سيردون عليه صندوق اللب بما تبقى؟.. أو حتى فارغا؟.. حينها سيضربه المعلم.. أما لو عاد بدونه فلا يدرى إلا الله ما سيصنع به..

عاد الشاويش ويمينه تقبض على مجامع ولد يبكى وهو يمسح النوم عن عينيه.. وفى يسراه بنت تحاول التملص وهى تصرخ - أما.. أما.

رفعهما.. قدفهما تباعاً إلى بطن الصندوق.. انفرطت علبة المناديل المرصوصة فى صندوق البنت.. تدحرجت عشرة قروش أوخمسة ناحية الولد الجالس فى الظلمة إلى أرض العربة والذى بدأ فى البحث عنها بيديه...

كان الولد مازال يمسك بيد البنت يكرر فى رعب- دى أختى.

حمد الله أنهم لم يفتشوا الكرتونة الكبيرة التى تقوقع حسن نائما بداخلها عند طرف الكوبرى الذى أيقظوه من تحته.. قبل أن يدخل الشاويش برجله الأخرى إلى الصندوق ضرب الضابط على الباب ثانية.. أسرع بالنزول إليه.. ثم ناحية عربة لساندوتشات

الكبدة والسجق ينبعث عنها دخان رمادى كثيف يشق برائحته قلب البرد.. التقت عيناه بعينى البائع الصامت.. بالتأكيد أنه سيستسمح الشاويش وهو يلف له الساندويتشات ليطلقهم.. ظل البائع صامتاً.. يضرب بالمغرفة على طست الكبدة بصوت ينادى به عفاريت الجوع من كل البقاع.. متى سيأكل؟.. متى؟.. قبل ظهر الغد؟.. بعد الغد؟.. فى مكتب الضابط؟.. فى زنزانة؟.. بالتأكيد أن المعلم سيضرب حسن بدلاً منه انتقاماً لغياب الصندوق.. أحس فجأة أن مثانته ستنفجر إذا لم يبل فى التو..

قبل أن يستدير الشاويش حاملاً لفة الساندويشات كان قد قفز من الصندوق .. وإلى الأوض.. اصدمت ركبته بالأسفلت.. رمى الشاويش الساندويتشات.. نهض بسرعة وهو يسمعه يسبه بأمه التى ماتت بينما الضابط يفتح الباب لينزل.. لم يلتفت إليهما.. انطلق يجرى.. يجرى.. نبح عليه كلب.. انزلق إلى حارة ضيقة.. إلى الشارع الكبير ثانية.. أسند ظهره خلف سور المسجد.. وقف يلهث .. يلهث.. بينما صوت المؤذن يتنحنح في الميكروفون.

المنصورة

١٩٩٦/٤/١٤

المحتوى

صدر من هذه السلسلة

الأعمال القادمة

أجل سحابة .... أمل جمال

كروب .... عصام راسم فهمى

بدة الاسطنهى .... ربيع عبد الرازق

انا لا أكون ميتا .... أشرف حسن

قة الذكريات........................ حسين أحمد إسماعيل

ة تلد رجلاً يشبهك........................ عزة سلطان

ة الأعضاء .... مصطفى فتحى

ـ النار........................ العربى عبد الوهاب

ب موت الحياة........................ عزت إبراهيم

فال يولدون نياما........................ حمدى عبد الرازق

ع العاديون مكبلين بالياسمين........................ وسام جلال الدويك

الأساطير الحالمة........................ محمد العشرى

رائحة الخوخ

محمد عبد الواحد



ستر‌فض عمتى وداعى ..
مفاجأة سفرى ستجعلها تكف
للأبد عن البكاء على محمود ..
ذبحه رائد اسرائيلى وهم
يسحبون طابور الأسرى تحت
شمس يونيو لأنه طلب مكررا
جرعة ماء ...

لوحة الغلاف الأساسى للفنانة السورية : نجاح طاهر

خمسون قرشا

شركة الأمل للطباعة والنشر